

سَاعِ الْإِلَافَاتِ

الأدب والعلم

للأستاذ أحمد أمين

الأستاذ بكلية الآداب بالجامعة المصرية

مرت كلمة الأدب والعلم في اللغة العربية في أحوار عدة ، استعملوا كلمة الأدب أحياناً فيما يرق الخلق ويذهب النفس واستعملوها أحياناً بمعنى أوسع حتى عنوا أفصح شعر لجرير والفرزدق والاختل أدباء ، وعنوا خريات أبي حواس وغلانياته أدباء كما يعد الفنان بعض الصور فناً وإن كانت صورة لوضع مستهجن أو فعل فاضح ، وكذلك الشأن في كلمة العلم ، كانوا أحياناً لا يستعملونها إلا في العلم الديني ، ثم توسعوا في معناها حتى شمل كل ما ينتج العقل والفن . وفي المصور الحديثة فترأى الأدب والعلم ورسم الكل دائرة ، ومن ثم كانت الصحيفة أو المجلة أحياناً أدبية ، وأحياناً علمية ، وأحياناً أدبية علمية ، وأصبح من المضحك أن نقول علم الأدب لأن العلم غير الأدب ، وأصبح لدينا من يسيء أدبياً ، فلا يكون عالماً بوعالماً فلا يكون أدبياً ، وقد يكون أدبياً عالماً ولكن كلمة عالم الأزهرية إنما اشتقت من العلم بالمعنى الواسع الذي يشمل الأدب والعلم معاً .

وبعد فما الفرق بين العلم والأدب ، وما الذي يجعل الأدب أدباً والعلم علماً ؟

الحق أن كلمة الأدب والعلم من الألفاظ الغامضة التي تفهمها نوعاً من الفهم فإذا أردنا تحديد معناها حرناً في أمرها ، كالجمال والعدل والخيال والحرية والعبودية ، وإذا سألتنا — حتى الخاصة — في معناها أجاب كل حسب ميوله وأغراضه وحسب طبيعة فهمه للكلمة .

هناك أشياء لا نشك في أنها علم أو أدب ، فلو سئلت عن نظريات الهندسة وقانون اللوغاريتمات وقوانين الحساب والطبيخ والكيمياء فذلك علم بالبداية ، وإذا سئلت عن قصائد شار وأبي نواس والمنيني ومقامات الحريري فذلك أدب لا علم ، ولكن ما حدود الأدب وما حدود العلم ؟

قد عودتنا الطبيعة أن الاصداد تفهم ما تباعدت ، فإذا ما تقاربت حدودها صعب فهمها ، ما أسهل ما تقول أن هذا ظل وهذا شمس ، ولكن عند تقارب الظل من الشمس تجد خطوطاً يصعب أن تقول أمي ظل أم شمس ، وما أسهل ما تقول أن هذا الماء حار أو بارد إذا اشتدت حرارته وبرودته ولكن ما أصعب ذلك إذا أخذ الحار يبرد والبارد يسخن فانك تفصل لا عمالة إلى درجة يفسر عليك الحكم فيها بالحرارة أو البرودة .

أكبر ظاهرة في التفرقة بين الأدب والعلم أن الأدب يخاطب العاطفة ، والعلم يخاطب العقل ، فإذا قلت أن زوايا المثلث تساوي قائمتين فانك تخاطب العقل ولا تمس العاطفة ، وإذا قال المتنبي : خلقت ألوفاً لو رحلت إلى الصبا — لفارقت بشي مرجع القلب باكياً فهو يمس العاطفة أولاً ، ومن أجل هذا كانت الجملة الأولى علماً وبيت المتنبي أدباً .

العالم يلاحظ الأشياء يستكشف ظواهرها وقوانينها وعلاقاتها بأشغالها وما يحيط بها ، على حين أن الأدب لا ينظر إليها إلا من حيث أثرها في عواطفه وعواطف الناس ، ينظر النباقي إلى شجرة الورد فيدرس كل جزء منها والتغيرات التي تطرأ عليها من وقت ينزها إلى وقت قائمها ، ومن أية فصيلة هي ، وما علاقتها بالفصائل التي تقرب منها ، أما الأدب فينظر إلى أجزاء الشجرة منسقة متسابة ويرى أنها لم تخلق إلا لأزهرتها الجميلة ، وأن بين الزهرة وقلبه نبأ . يعجب بحمرة لونها على خضرة أوراقها ويذهب خياله في ذلك كل مذهب أما النباقي فيبحث لم كانت الزهرة حمراء وأوراقها خضراء ، عالم الحياة لا يرى في الفتاة المحبوبة إلا إنساناً خاصاً لكل أبحاث البيولوجيا أما الأدب فيرى في عبوتها شيئاً وراء كل ما يبحث عنه العالم من الحياة وهي الدنيا وهي البعيم إذا وصلت والبؤس إذا صلت ، أو يقول مع القائل :

ويلاه إن نظرت وإن هي أعرضت وقع السهام وتزعجن أليم
فالكلام إذا لم يثر عاطفة لم يكن أدباً فإذا هو مخاطب العقل
وحده كان علماً ، وإذا أمن في إثارة العاطفة كان آمناً في الأدب .
وليس الأدب وحده مولف العاطفة فقد تنوعت في هذا المرسى فهي قادرة على أن تضحك وتبكي ، وترى وتخزن ، وتسر سروراً حزناً ،

ونحن حزنا سارا، وتولم ألما لذبا، وتلفذ أليمة، وتثير الشجاعة حتى لتدفع ال الموت، وتنت الحمول حتى لتدعو الى اليوم. تغنى الموسيقى أن تفعل كل ذلك فى العاطفة، وهى أفقر من الأدب لأن الأدب يخاطب العاطفة بواسطة الكلام ومن طريقه أما الموسيقى فتخاطب العاطفة رجها لوجه من غير وسيط. تؤثر فيك أدوار العود والقانون والياو ولو لم نصحب بكلام ولو لم تفهم أى معنى منها، بل قد تكره أن تفهم إلا النغم وحلاوته والتوقيع وعذوبته. أما الأدب فلما اعتمد على الكلام والكلام إنما يفهم بالعقل. كان لابد للقطعة الأدبية من قدر من العقل ومن المعاني لتستاربها العاطفة وتبهج بها الشاعر.

وارتباط العاطفة بالأدب هو الذى مع الأدب — لا العلم — الخلود، فالتاج الأدى خالد أبدي لا التاج العلى، قصائد امرئ القيس والتابعة وجرير والفرزدق وشار وأق نواس والمننى كلها خالدة تقرأها قتلد منها كما يلذ منها من كان فى عصرهم، فإن احتاج الى شئ فتنس ما غمض من الألفاظ والمعاني، وهو بعد يشعر بشعورهم ويسر كسرورهم، ثم القطعة الأدبية لا تمل، تقرأها ثم تقرأها تقرأها قسر منها فى الثانية سرورك منها فى الأولى، بل تحفظها ثم تتعشق تلاوتها وتكرارها، وليس ذلك هو الشأن فى العلم فحقائق العلوم خالدة ولكن منتجات العلوم غير خالدة ففى كتاب أقليدس من نظريات هندسية خالدة ولكن الكتاب لا يقرأه الآن إلا من أراد أن يرجع الى تاريخ الهندسة، وكل كتاب فى الهندسة يموت بمرور سنين عليه ولا تموده قيمة إلا القيمة التاريخية مهما حوى من نظريات جديدة وترتيب جديد، وكذلك كتب الحساب والجبر والطبيعة والكيمياء، والفلك ليست خالدة وإن كانت الحقائق التى فيها خالدة، بل الطبعة الثانية من هذه الكتب تقضى على الطبعة الأولى بانقضاء. إذا دخلها تغيير، وليس طالب علم الآن يرجع الى ما ألف من خمسين عاما إلا إذا أراد أن يورخ العلم ولكن طالب الأدب يرجع الى ديوان المننى الآن ليتنقأ أدبه ولطذ مشاعره كما كان ذلك منذ ألف عام برتد حفظت بعض قصائده ولا أزال أستمتع بقراءتها ولكن إن أنت قرأت كتابا فى الرياضة وفهمت ما فيه لا تستطيع بحال أن تعيد قراءته إلا على منصف.

والسبب فى هذا — على ما يظهر — أن عواطف الناس لم تتقدم كما تقدمت عقولهم، تد ترقى العواطف شكلا فترى أن الاحسان الى الفقير بأعطائه درهما ليس خيرا ولكن خيرا منه بناء مستقيم وإنشاء ملجأ ونحو ذلك. ولكن العاطفة هى فى أساسها برتد ترقى عاطفة المخترع الأبرى فلا ترى ما نأما من دفع الاولاد الى حرب الحياة

وجوب الاضطرار. ولكن العاطفة فى أساسها واحدة. أما العقل فثواب دائما وراق أساسى الشكل وفى الأساس يرى حلالا اليوم ما كان حراما بالأمس ويرى حراما الآن ما كان باطلا من قبل ويعتزع كل يوم جديدا ويصوع حياته وفق الجديد. ومن أجل ذلك لا يلذنه أن يقرأ عمل السابقين إلا كما يقرأ تاريخهم ولكن عواطفه هى هى ركزت ونشت فتدذ اليوم بما عمل عواطف الانديمين وإن كرت عليها الدهور وتواتت العصور، وليس الامر بهذا القدر من السهولة فى الفصل بين الأدب والعلم. هناك أنواع يصعب الفصل فيها حتى على الخاصة. أدب هى أم علم، هناك أدب، معلم، وهناك علم، مؤدب. هناك تاريخ صبح صباغة أدبية فلا يكفى ببرد الحقائق وتعين زمن وغرعا وإنما يصح ذلك فى قالب يثير شعورك للاحتداد، والقذوة أو للحب أو الكراهة. وهناك فلسفة صيغت فى قالب قصة. وهناك طبيعة وكيمياء، صاغتها يد صناع ماهرة فى الفن تحمل قلم أديب فأخرجت منها موضوعات شيقة تثير عاطفة الجمال وتخرج الأعجاب بما فى هذا العالم من ابداع وفن.

هذه الموضوعات وأمثالها ليست أدبا خالصا ولا علما خالصا وإنما هى علم أدبى أو أدب علمى. هى أدب بمقدار ما تثير من عاطفة، وهى علم بمقدار ما فيها من حقائق.

العلم لفة العقل، والأدب لفة العاطفة، ولكن لا بد فى هذه الحياة أن يلفظ العلم بالأدب، والأدب بالعلم، فالعقل اذا جمع استخف بالشعور وجعل الحياة ثمة للعلم، وهو اذا مزج بشئ من الأدب من الحياة ورفه على الناس، والعاطفة اذا شردت كانت ثورانا وهياجاً. ألا ترى التمتع يزيد فيكون نباحا، والعشق يهيم فيكون جنونا؟

احمد امين

ضحى الاسلام

هو الجزء الثالث لفجر الاسلام

بحث فى الحياة العقلية للعصر العاصى الاول

تأليف

الاستاذ احمد امين

الاستاذ بكلية الآداب بالجامعة المصرية

يطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر ومن المكاتب الشيرة

وغته عشرون قرشا